أسس اعتراف الإسلام بالآخر
(اليهودي والمسيحي نموذجا)

سفيان شتيوي
طالب دكتوراه

ملخص: جاءت هذه الدراسة في عزّ أزمة ثقة بين الإسلام والغرب،وفي ظل ما تعانيه الأمة الإسلامية من حملات تشويه ممنهجة تستهدف عقيدتها، محاولة إيهام الرأي العام الدولي بأن الإسلام دين إقصائي يضيق ذرعا بالآخر، مستغلة ومستثمرة في ردود أفعال "العنف" و"القتل" من طرف جماعات محسوبة على الإسلام للتأكيد على صحة أطروحاتها... وهو ما فنّدته هذه الدراسة من خلال جملة من الأسس والركائز التي توضح مدى اعتراف الإسلام بالآخر اليهودي والمسيحي مستندة إلى النصوص القرآنية والنبوية والتي بيّنت المكانة الخاصة التي يحظى بها أهل الكتاب،وسماحة الإسلام معهم، ومدى احترامه واحتوائه لهم.

مقدّمة:

باتت مقولات التفاهم والتعايش والتواصل مع الآخرين منأكثر الموضوعات تداولا واستعمالا في الساحة الفكرية الإسلامية المعاصرة، وقد فرضته مجموعة من الظروف أهمها: الهجمة الغربية "الشرسة" على مقدّسات المسلمين وما نتج عنها من ردود أفعال عنيفة من جماعات محسوبة على الإسلام تبنت خطاب العنف واستباحت دماء الآخرين باسم الإسلام، حتى أضحت صورة الإسلام مهتزّة في الوعي الغربي، فهو دين"عنف" و "إرهاب"، دين يلغي الآخر أيا كان، ويستبعده ويرفض التعايش والتفاهم والتواصل معه...أو هكذا يعتقدون ويحاولون الترويج له في الأوساط الغربية عبر وسائل الإعلام المختلفة،مما جعل الإسلام متّهما إلى أن تثبت براءته!!!

لذلك جاءت الدراسات والبحوث ـ وهذه إحداها ـ تترى لتفنيد هذه الاتهامات الزائفة، والشبهات الباطلة التي تتناقض وتتصادم وتتعارض مع النصوص القرآنية والنبوية الصريحة الصحيحة، وكذا وقائع التاريخ الإسلامي خاصة في عهد الخلافة الراشدة التي تؤكد سماحة الإسلام مع "الآخر" وتبيّن طاقة الإسلام الاحتوائية "للآخر"، خاصة أهل الكتاب الذين لهم مكانة خاصة في المنظومة العقدية والتشريعية الإسلامية.

لقد جاء الإسلام بمفاهيم جديدة في نظرته للآخر غير تلك المفاهيم السائدة التي حكمت علاقات الشعوب والأجناس في ذلك التاريخ. فاليهودية تحوّلت إلى ديانة "إثنية ـ عنصرية" حينما جعلت الله تعالى إلها خاصا بنبي إسرائيل لوحدهم، أما بقية الأجناس الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها، وبالتالي فاليهود هم "شعب الله المختار"، أما بقية الشعوب الأخرى فهي دون اليهود منزلة، فجاءت الأحكام التشريعية المتعلّقة بالآخر مثقلة ومحملة بهذه الروح والنزعة العنصرية.

وكذلك الحال بالنسبة للنصرانية التي بادلت الآخرين إنكارا بإنكار، وإلغاء بإلغاء، واقصاء بإقصاء، وهو ما سجّلته كتب التاريخ، فبمجرد أن أفاقت النصرانية من الاضطهاد الوثني الروماني وتديّن الرومان بالنصرانية حتى صبّت جام اضطهادها على غيرها من الوثنيين، وشنّت حملة اقصاء ضدّهم باسم الكنيسة[1].

وقد سجّل القرآن الكريم هذه المواقف الرافضة للآخر سواء من ناحية الاعتراف به أو الإقرار بحقوقه، فضلا عن التعايش والتفاهم والتواصل معه، قال تعالى (**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**) [سورة البقرة: 113]

وفي آية أخرى نقرأ هذا الاقصاء للآخر (**ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل**) [سورة آل عمران:75].

وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالصدام والصراع ومحاولات إلغاء الآخر وإقصائه واضطهاده... جاء الإسلام فرفع شعار الاحتواء بدل "الإلغاء" ، و"الوئام" بدل "الصدام"، وجعل من الاعتراف بالآخر أساسا للتعايش والتفاهم والتواصل معه، ذلك أنه لا معنى للحديث عن التعايش أو التجاور أو التواصل مع الآخر دون الاعتراف بشرعيته، واحترام إرادته وفكره ومشاعره...وهذا الاعتراف ليس مجرّد كلمة تقال أو شعار يرفع، وإنما هو دين مقدّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي.وهو ما يدفعنا إلى التساؤل الآتي :

ماهي الأسس التي تحكم رؤية الإسلام للآخرين من اليهود والنصارى، وتعبّر عن موقفه منهم؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل ينبغي التأكيد على أمر مهم ألا وهو أن الحديث عن اعتراف الإسلام بالآخر وبيان الرؤية الإسلامية في تعاملها مع الآخر ليس إشكالا فرضته إكراهات اللحظة الراهنة، وإنما هو جزء من عقيدة المسلم ومبدأ من مبادئ دينه الذي علمه أن البشر كتلة واحدة، وأن الله أراد لهم أن يحققوا التعارف والتعايش ومن ثم التواصل، قال تعالى (**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**) **[سورة الحجرات:19]**

([1]) ـ كما فعل بطريرك الكنيسة المصرية "تيوفيلوس" مع الوثنيين، من حرق معابدهم وكتبهم واضطهاد فلاسفتهم...هذا دون أن ننسى الصراع الدموي بين المذاهب النصرانية خاصة بين "اليعقوبي"و"الملكاني". ينظر: محمد عمارة: حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد(31 ـ 32)، السنة (8)، 1424 ـ 2003، ص 126.

وقد جاءت هذه الدراسة في خمسة مباحث تمثّلالإطار المرجعي الذي يبيّن مدى اعتراف الإسلام بالآخر ومكانته في المنظومة العقدية والتشريعية، ففي ظلها يفهم أبعاد الكثير من النصوص القرآنية والنبوية.

المبحث الأول: الإقرار بالتنوع والاختلاف

المبحث الثاني: الإقرار بالنسب السماوي لليهودية والنصرانية

المبحث الثالث:الاعتراف بالكرامة الإنسانية

المبحث الرابع: الإنصاف والعدل

المبحث الخامس: الإقرار بالحرية

المبحث الأول ـ الإقرار بالتنوع والاختلاف:تنطلق الرؤية الإسلامية في نظرتها للآخر عموما من الأصل الواحد للبشر، فهم وحدة متساوية في الخلق مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم، ومن النصوص التي خاطبت البشرية بعنوانها الشامل "الناس" :

قوله تعالى (**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)**[سورة النساء: 1]

وقوله تعالى(**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير)[**سورة لقمان: 28]

وقوله تعالى (**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** [سورة الحجرات: 13]

قوله صلى الله عليه وسلم :" و**الناس بنو آدم وخلق الله آدم من التراب**"[2].

فهذه النصوص ـ وغيرها ـ تبين أن البشرية تلتقي على أرضية مساواة النفس الواحدة، حيث خلق الله الناس جميعا من نفس واحدة وخلق من هذه النفس زوجها وتوالد الناس من هذين الأبوين (آدم وحواء). هذهالأرضية المشتركة تذوب فيها فوارق الحدود الجغرافية، وصراع القوميات والأجناس واللغات والنعرات، وتتوحد قيمتهم على كلمة واحدة هي كلمة التقوى التي جعلها الله ميزان التفاضل بين الناس كما دلت عليه الآية السابقة[3](**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** [سورة الحجرات: 13]

وهذا التذكير بالأصل الواحد في الخلق للبشر ليس لذاته، فهو ليس لمعرفة أصل الإنسان وانتهى الأمر، وإنما غرضه التذكير بوشيجة الإخاء الإنساني وبرابطة الوحدة الإنسانية، هذه الوحدة التي تتضمن وحدة الأصل،ووحدة التكوين،

(2) ـ سنن الترمذي: كتاب (الفضائل)، باب (تفسير سورة الحجرات).

(3) ـ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق . بيروت، ط12: 1986، ج3، ص 48.

وبالتالي فهم إخوة في الإنسانية[4]، لذلك نجد القرآن الكريم يلفت انتباهنا إلى هذا المعنى حينما سمى النبي المرسل إلى قومه (الكافرين) ب"الأخ" في إشارة إلى الوشيجة الإنسانية التي تربطه بهم، ومن ذلك:

قوله تعالى (**وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون**)[سورة الأعراف:65]

وقوله تعالى(**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**)[سورة الأعراف: 73].

وقوله تعالى (**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**)[سورة الأعراف: 85].

فالأخوة في الإسلام لا تنحصر في الأخوة الدينية أو النسبية أو القرابية أو الوطنية وإنما تتعداها إلى الأخوة الإنسانية اعتبارا بالأصل الواحد في الخلق[5]، فالناس ـ كما قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق[6].

وإذا كان خلق البشر ـ في الرؤية الإسلامية ـ يرجع إلى نفس واحدة فإن مشيئة الله (الكونية لا الشرعية) شاءت اختلاف الناس في ألوانهم وأعراقهم وأجناسهم ومعتقداتهم، وهو اختلاف تنوع يفضي إلى تعاون لا اختلاف تضاد يفضي إلى شقاق وخصام. ويذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حينما اعتبر أن هذا الاختلاف هو سنة من سنن الله تعالى الثابتة الدائمة، قال تعالى(**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدةولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**)[سورة هود: 118 ـ119].

يقول محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية :" (**ولو شاء ربك**)أيها الرسول الحريص على إيمان قومه الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته وإتباع هدايته (**لجعل الناس أمة واحدة**) على دين واحد بمقتضى الغريزة، لا رأي لهم فيه ولا اختيار، وإذن لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر، وبنوع الإنسان، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة ...(**ولا يزالون مختلفين**)في كل شيئ حتى الدين"[7].

إن هذه الآية صريحة في التأكيد على حتمية الاختلاف بين بني البشر، ذلك أن الأصل والقاعدة والسنة والقانون ـ في التصور الإسلامي ـ هو التعددية والاختلاف والتنوع في جميع ميادين الخلق الإلهي، فما عدا الذات الإلهية، قائم على التنوع والتعدد والاختلاف، وهي سنة الله تعالى التي لا تبديل لها ولا تحويل[8]، قال تعالى (**فلن تجد لسنة الله تبديلا...**)[سورة فاطر:43]

([4]) ـ عبد المنعم أحمد بركة: الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين، مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية، ط1: 1990، ص 65.

([5]) ـ أسعد السحمراني: الإسلام والآخر، دار النفائس ـ بيروت، ط1: 2005، ص 15. القره داغي: نحن والآخر، منشورات الإتحاد العالمي للعلماء المسلمين، ص 49.

([6]) ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهلي، ج4، ص 518.

([7]) ـ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المعرفة ـ بيروت، ط2:1947، ج 12، ص193.

([8]) ـ محمد عمارة: الأصولية بين الغرب والإسلام، دار الشروق ـ القاهرة، ط2 : 2006، ص 75.

وهذا الاختلاف ليس خاصا بالبشر فحسب، وإنما هو سنة كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات، التي تبيّن عظمة خالق الكون سبحانه، قال تعالى (**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**)[سورة الروم: 22]

وقال تعالى (**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون**)[سورة يونس: 06]

لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشر مختلفين، فكل إنسان له شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميّز، وطبائعه التي ينفرد بها عن غيره، فكما ينفرد كل إنسان بصورة وجهه،ونبرة صوته، وبصمة بنانه، ينفرد كذلك بلون تفكيره، ونظرته إلى الأشياء والأشخاص والمواقف[9]... ومن هنا فإن أية دعوة تسعى إلى إلغاء هذا التعدد، أوتدعو إلى أحادية الانتماء في اللسان أو اللون أو العرق أو الجنس أو تسعى إلى فرض معتقد أو فكر أو ثقافة معيّنة على الناس هي دعوة مردودة على أصحابها، لأنها بمثابة تعطيل لمشيئة الله تعالى وإلغاء لسنة من سننه الكونية بنص الآية سالفة الذكر.

ومن هنا فلا غرابة إن رأينا الخطاب القرآني يحذّر النبي (صلى الله عليه وسلم) من محاولات فرض الإيمان على الناس، وإجبارهم على ذلك، قال تعالى (**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**) [سورة يونس:99]

فكل محاولة لإكراه الناس على عقيدة معيّنة، أو محاولة صب الناس في قوالب واحدة موحدة تتناقض مع سنة التنوع والاختلاف، كما أنها تتناقض مع منهج الإسلام في الدعوة إلى عقيدته المبنية على "الحرية" لا "الحتمية"، وعلى "الاقتناع" لا "الإكراه"، ذلك أن الإكراه أو الإجبار يثمر نفاقا ولا يثمر إيمانا.

ومن هنا كانت مهمة النبي (صلى الله عليه وسلم) وسائر الأنبياء هي البلاغ والتذكير والتبشير لا أكثر، نقرأ ذلك في عديد النصوص القرآنية:

قال تعالى (**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**) [سورة العنكبوت:18]

وقال تعالى (**فذكّر إنما أنت مذكّر، لست عليهم بمسيطر**) [سورة الغاشية:21 ـ22]

وقال أيضا (**فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ**) [سورة الشورى:48]

إن الإقرار بحتمية التعدد والتنوع والاختلاف واعتباره"سنة كونية"، ورفض الإجبار الذي يتنافى مع هذه السنة الكونية هو في حدّ ذاته اعتراف بالآخر يعطيه شرعية تعزز حقه في الكرامة والصيانة وتحترم إرادته وفكره ومشاعره، "وهذه هي أخص خصائص حقوق الإنسان وأقوم منهج للمجتمع الإنساني، فالغيرية في الإسلام تعني في جوهرها التسليم

(9) ـ يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق ـ القاهرة، ط2: 2001، ص 55.

بالاختلاف، التسليم به أفقا لا يسع عاقلا إنكاره، والتسليم به حقا للمختلفين لا يملك أحد أو سلطة حرمانهم منه"[10]. وينتج عن هذا التسليم أمران:

أولا ـ تقبلّ الآخرين باعتبار وجودهم يدخل ضمن سنة من سنن الله الكونية

ثانيا ـ وجوب التعايش والتفاهم والتواصل معهم باعتباره ضرورة حياتية.

المبحث الثاني: الإقرار بالنسب السماوي لليهودية والمسيحية:وهذه دعامة أخرى تضاف إلى الدعائم التي توضح رؤية الإسلام للآخرين من اليهود والنصارى وبيان منزلتهم في المنظومة العقدية والتشريعية، وهذا الدعامة يمكن أن نلمسها من خلال ثلاثة مظاهر:

أولا ـ تسميتهم بأهل الكتاب:وقد وردت كلمة "أهل الكتاب" في واحد وثلاثين موضعا ، وكلمة "أوتوا الكتاب" في ثلاثين موضعا من القرآن الكريم[11]، وذلك في إشارة إلى القرابة الروحيةوالوشيجة الإيمانية إلى جانب الوشيجة الإنسانية التي تربط المسلمين بأصحاب الأديان السماوية، كل ذلك في إطار العقيدة الواحدة والشرائع المتعددة.

ثانيا ـ الاعتراف بالكتب السابقة: فالقرآن الكريم لم يأت نافيا أو ملغيا أو رافضا لما سبقه من كتب، بل جاء مصّدقا لها، ومهيمنا عليها، أي جاء محافظا على أصولها ومضيفا إليها، ومصّححا لما طرأ عليها من تحريف أو تبديل، نقرأ هذا المعنى في العديد من الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالى (**وهو الحق مصدّقا لما معهم**) [سورة البقرة:91]، فالقرآن جاء مصدقا للكتب السابقة غير رافض لها.

وفي آية أخرى نجد القرآن الكريم يصف التوراة والإنجيل ب "الهدى" و "النور"، قال تعالى (**ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**) [سورة آل عمران:1 ـ4]، فبالرغم مما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل إلا أن فيهما الهدى والنور، فالتوراة (**فيها هدى ونور**) [سورة المائدة:44]، وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل (**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور**) [سورة المائدة:46]

ثالثا ـالاعتراف بأنبياء اليهود والنصارى: وهذا الاعتراف يتجلى من خلال جعل التصديق بالأنبياء والرسل ركنا من أركان الإيمان، فلا يصحّ إيمان الإنسان إلا إذا كان مؤمنا بجميع الأنبياء والرسلدون تفريق بينهم، ومن الآيات التي خاطبت المسلمين بذلك:

([10]) ـ مريم آيت أحمد: العلاقة مع الآخر . أسسها وضوابطها في ضوء الوسطية الإسلامية . مجلة الكلمة، عدد {44}، السنة{11}،، 2004، ص 132.

([11]) ـ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر ـ بيروت، ط2: 1981، ص 592.

قوله تعالى (**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**)[سورة البقرة: 113]، فالإيمان يقتضي التصديق بجميع الأنبياء والرسل دون تفرقة بينهم.

وفي آية أخرى نجد هذا المعنى واضح جلي(**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**)[سورة البقرة: 285]

وبناء على هذه النصوص استنبط الأصوليون(وهم جمهور المالكية والحنفية وبعض الشافعية وأحمد في رواية عنه) قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ما ينسخه" في دلالة على هذه الوشيجة التي تربط المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب[12].

إن اعتراف الإسلام بجميع الأنبياء والرسل، وجعل ذلك ركنا من أركان الإيمان، كان لبيان "وحدة العقيدة"، وأن الدين واحد من آدم (عليه السلام) إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) والشرائع متعددة بتعدد أزمنة النبوات والرسالات، فجميع الأنبياء والرسل دعوا إلى دين واحد "لا تختلف أصوله ولا تتعدد أغراضه كشجرة واحدة جذورها وروحها توحيد الله، وجذعها عبادته وحده دون سواه، وأغصانها أنظمته وشرائعه المحققة لسعادة البشرية، وثمارها وأزهارها قد تتعدد أشكالها وألوانها وطعومها حسب الأمزجة المختلفة والأزمنة المتغيّرة والمصالح المتجددة"[13].

وقد عنون القرآن الكريم للدين الموحد بكلمة (الإسلام)، "والإسلام في لغة القرآن ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء"[14].

وهذا المعنى نجده في آيات كثيرة:

فنبي الله نوح (عليه السلام) قال لقومه (**وأمرت أن أكون أول المسلمين**) [سورة يونس:72]

وبهذا أوصى نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بنيه، ووصى به حفيده يعقوب(عليه السلام) من بعده بنيه، قال تعالى (**ووصى به إبراهيم بنيه ويعقوب إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون**)[سورة البقرة: 132 ـ 133]

وكذلك الحال بالنسبة لنبي الله موسى (عليه السلام) حين قال لقومه (**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**) [سورة يونس: 84]

([12]) ـ ينظر: وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر ـ دمشق، ط1: 1986، ج2، ص 834.

([13]) ـ وهبة الزحيلي: نظام الإسلام، دار ابن قتيبة ـ بيروت، ط2: 1993، ص 55.

([14]) ـ عبد الله دراز: الدين، مطبعة الحرية ـ بيروت، ص 175.

ونجد الحواريين يقولون لعيسى (**آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون)** [سورة آل عمران:52]

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن (**قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين)** [سورة القصص:53]

وهكذا نرى أن الإسلام هو شعار عام يدور على ألسنة الأنبياء جميعا، ومن هنا فالدين الذي جاء به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ليس دينا جديدا ـ في جوهره ـ وإنما هو دين الأنبياء من قبله[15]، ومن الآيات التي تؤكد على هذا المعنى:

قوله تعالى(**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)**[سورة العنكبوت: 46]، وهذه الآية تقرر أن بين المسلمين وأهل الكتاب مجموعة من "المشتركات" التي يمكن أن تؤسس أرضية للحوار وتفتح جسورا للتواصل معهم، دون أن يعني ذلك الذوبان أو الانصهار في دين واحد، فهناك الحوار بين الأديان الذي يجعل من الحوار وسيلته، ومن المشتركات منطلقه، وهو أمر محمود ومطلوب، وهو فريضة شرعية وضرورة حياتية، ، وهناك وحدة الأديان التي تعني الانصهار في دين واحد، وهو ما يتناقض ويتصادم مع روح الإسلام.

وفي آية أخرى نجد القرآن الكريم يتحدث عن جوهر دعوة الأنبياء جميعا(**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك)**[سورة فصلت: 43]

والمتأمل للقرآن الكريم ليجد أن كلمة "الدين" لم تأت بصيغة الجمع "أديان" على الإطلاق[16]، وإنما هو دين واحد (عقيدة واحدة) تعددت رسالاته ورسله، فالذي تلقاه خاتم الأنبياء (محمد صلى الله عليه وسلم) هو في جوهره ما تلقاه الرسل من قبله، ذلك أن جوهر وروح الرسالات السماوية واحد ألا وهو التوحيد كما دلّ على ذلك قوله تعالى (**ولقد بعثنا في كل أمّة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)** [سورة النحل:36]

وقوله تعالى (**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)** [سورة الأنبياء:25]

ولأن السنة النبوية هي التطبيق العملي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بكل الأنبياء والرسل، فالوحي الذي جاء به هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى سلفه من أصحاب الرسالات، فالأنبياء جميعا

([15]) ـ المرجع نفسه، ص 176.

([16]) ـ عائشة عبد الرحمن: القرآن وقضايا الإنسان، دار المعارف . القاهرة، ص 100.

أبناء دين واحد وشرائع متعددة، وفي ذلك يقولرسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" **الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد**"[17].

وهكذا نجد الإسلام أضاف لبنة أخرى ـ إضافة إلى اللبنة الأولى ـفي اعترافه باليهود والنصارى من خلال الإقرار بنسبهم السماوي، وما يتبع ذلك من الاعتراف بكتبهم،والإيمان بجميع الأنبياء والرسل، دون تفريق بينهم وجعله ركنا من أركان الإيمان... كل ذلك في إطار الدين الواحد والشرائع المتعددة.

المبحث الثالث ـ الاعتراف بالكرامة الإنسانية:ينظر الإسلام للإنسان باعتباره المخلوق الأعلى رتبة ومنزلة في هذا الكون، فهو سيد في الأرض وفي السماء، ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله وقبسا من نوره، وهذا النسب السماوي كما يقول الشيخ الغزالي " هو الذي رشح الإنسان ليكون خليفة عن الله في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة، بل صنوف المخلوقات الأخرى تعنو له وتعترف بتفوقه"[18].

وعديدة هي الآيات القرآنية التي تعلي من شأن الإنسان، ومن تلك الآيات:

قوله تعالى (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون**)

[سورة البقرة: 30]

وقوله تعالى (**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**)[سورة الحجر: 29]

وقوله (**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا**) [سورة الإسراء: 70]

وقوله تعالى(**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**) [سورة التين: 4]

فهذه الآيات ـ وغيرها التي تمجد الإنسان وتعلي مرتبته ـ تتناول الإنسان لذاته لا لاعتقاده من حيث هو كائن بشري، وقبل أن يصبح نصرانيا أو يهوديا أو بوذيا، وقبل أن يصبح أبيضا أو أسودا أو أصفرا[19].

وعليه فلا يمكن اعتبار تلك الحفاوة القرآنية بالإنسان خاصة بالمسلم دون غيره، ذلك أن مبادئ الإسلام ذات نزعة إنسانية، فهو ديانة عالمية مفتوحة على كل الأجناس والأعراق، وخطابه موجه للبشرية جمعاء، والإله هو إله رب

([17]) ـ صحيح مسلم: كتاب (الفضائل) ، باب (فضل عيسى عليه السلام)، رقم (145).

([18]) ـ محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار نهضة مصر . القاهرة، ط4: 2005، ص 11.

([19]) ـ ينظر: الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث ـ بيروت، ج 14، ص 117.ابن عاشور:التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ج15، ص164.

العالمين (**الحمد لله رب العالمين**) [سورة الفاتحة:1]،عكس اليهودية التي تجعل من نفسها ديانة مغلقة لها إله خاص وشعب خاض في أرض خاصة.

إن النصوص ـ سالفة الذكر ـ شديدة الوضوح في التأكيد على أن التكريم الإلهي للإنسان كان لذاته بصرف النظر عن دينه ولونه وعرقه ... فهي تارة تتوجه بالخطاب إلى (الناس)، وتارة تتوجه بالخطاب إلى (بني آدم)، "وهذا التعميم لا تخفى دلالته على أي عقل منصف ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم"[20]. وهذا التكريم يبدأ قبل خروج الإنسان للحياة، أي منذ أن كان جنينا في بطن أمه، وهو بمثابة "سياج من الصيانة والحصانة، هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفا أو قويا، فقيرا أو غنيا، من أي ملة أو نحلة فرضت ...ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدل، ووطنه أن يخرج منه، أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه قسرا"[21].

وقد كان لهذا الموقف التكريمي للإنسان أصداء على الكثير من النصوص القرآنية والنبوية، منها:

قوله تعالى (**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**) [سورة المائدة: 32]

وهذه الآية تتحدث عن بشاعة وفظاعة جريمة قتل الإنسان ظلما بغير وجه حق، فهي ليست عدوانا على الفرد فقط، ولا عدوانا على المجتمع فحسب، ولكنها أكبر وأفدح من ذلك، فهي عدوان على الجنس البشري بأسره[22]. كما أنها تحدثت عن "النفس البشرية" وعن "الناس" دون تمييز بين لون وجنس وملة، لأنه "لا فرق بين نفس ونفس، فهي "تعلمنا ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع، واتقائه ضرر كل فرد، لأن انتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع، والقيام بحق الفرد من حيث أنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع، قيام بحق الجميع"[23].

إن منطلق هذا التجريم والتشنيع على فاعليه هو كرامة الإنسان وآدميته التي لها في الإسلام حصانة غير قابلة للانتهاك، فلا يجوز لأي كان أن يعتدي على غيره بغير وجه حق.

([20]) ـ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون، دار الشروق ـ القاهرة، ط3: 1999، ص 81.

([21]) ـ محمد عبد الله دراز: نظرات في الإسلام، 1972، ص 164.

([22]) ينظر:الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر ـ القاهرة، ط1: 2000، ج 8، ص 358.

([23]) ـ تفسير المنار: 349/6.

ومن النصوص التي توضح مدى مراعاة الإسلام لإنسانية الإنسان واحترام آدميته، وأنها أحد الثوابت والأسس التي تحكم رؤيته للآخر، القصة التي سجّلها البخاري في صحيحه من أن النبي(صلى الله عليه وسلم) قام من مجلسه تحية واحتراما لجثمان ميت مرّ أمامه وسط جنازة سائرة، ولما قيل له إنها جنازة يهودي ردّ قائلا: "**أليست نفسا**"[24].وهذا الموقف يعبّر بوضوح وجلاء عن مدى احترام الإسلام للنفس البشرية، وأنها مصانة، بصرف النظر عن لونها وعرقها ودينها، وفي ذلك محو لنزعة التعصب وإلغاء الآخر ونفيه من نفسية المسلم وغرس لروح التسامح والأفق الواسع ، حتى لا يضيق المسلم بمن يخالفه في المعتقد، دون أن يعني ذلك التفريط في الإسلام أو عدم الاعتزاز به.

وفي ظل هذا الموقف التكريمي للإنسان كان عقاب أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" (رضي الله عنه) لواليه على مصر "عمرو بن العاص" عندما ضرب ابنه صبيا قبطيا ، فأصرّ عمر بن الخطاب أن يقتص الصبي القبطي من ابن عمرو بن العاص، وقال له: اضرب ابن الأكرمين...ثم عنّف عمرو بن العاص وقال له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟؟

وهكذا نرى أن قيمة الإنسان ـ مهما كان لونه أو عرقه أو دينه ـ تظل واحدة من الثوابت الأساسية في التصور الإسلامي التي لا تقبل الانتقاص بأي شكل من الأشكال، فهي الأساس الذي يحكم رؤيةالإسلام للآخر، وأي انتهاك لهذه القيمة هو بمثابة تناقض مباشر مع دعامة أساسية في التصور الإسلامي بنصّه وروحه[25].

المبحث الرابع: الإنصاف والعدل:وهو من الأسس التي تحكم رؤية الإسلام للآخر وتعبّر عن موقفه منه، كما يعتبر هذا الأساس من أبرز سمات الرسالة الخالدة، وأصل من أصولها في جميع جوانبها، وهو من أكبر الأسباب التي جذبت الناس نحو الإسلام، فكان بحق مصدرا من مصادر قوة الإسلام ومفخرة من مفاخره.

لقد جاء الإسلام في بيئة ترفض الاعتراف بالآخر أساسا، فضلا عن إنصافه والعدل معه، فكانت العنصرية احدى ثمار سياسة الإلغاء والإقصاء السائدة، فالفئة الضعيفة المغلوبة على أمرها، الفاقدة لحقوقها، في خدمة الفئة القوية التي اكتسبت قوتها بدافع العصبية والقبلية، فلما جاء الإسلام غيّر هذه النظرة الاقصائية للآخر أيا كان، وجعل من العدل مع الناس كافة احدى الثوابت التي توضح هذه الرؤية الاستيعابية الاحتوائية للآخر، وهو ما أشارت إليه العديد من الآيات القرآنية، التي يمكن أن نقسمها إلى مستويين:

([24]) ـ أخرج البخاري في صحيحه (كتاب "الجنائز"، باب "من قام لجنازة يهودي" رقم "1312") من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال" **كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض . أي من أهل الذمة . فقالا: إن النبي . صلى الله عليه وسلم . مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفس؟**".

([25]) ـ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون، ص 83.

المستوى الأول ـ التأكيد على وجوب العدل: حيث جاءت الآيات القرآنية تخاطب المسلمين بوجوب العدل مع كل الناس، بصرف النظر عن انتماءاتهم وأفكارهم ومعتقداتهم، ومن هذه الآياتقوله تعالى (**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)[سورة الممتحنة:8]

وهذه الآية تأمر المسلمين بوجوب التعامل بالعدل والانصاف مع المسالمين من غيرهم، ذلك أن العدل معهم واجب ومطلوب، يقول القاسمي في تفسيره لهذه الآية:"ي لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، أي تُفْضُوا إليهم بالبر، وهو الإحسان، والقسط وهو العدل، فهذا القدرمن الموالاة غير منهي عنه، بل مأمور به في حقهم، والخطاب وإن يكن في مشركي مكة، إلا أن العبرة بعموم لفظه، وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه؛ فرد ذلك الإمام ابن جرير بقوله والصواب قول من قال عنى بقوله تعالى(**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ**)، جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم، فإن الله عز وجل عمَّ بقوله(**الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ**)جميعَ من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض"[26].

وفي آية أخرى نجد القرآن الكريم قد جعل العدل فريضة على المسلمين يتعاملون فيها مع ربهم مهما لاقوا من غيرهم من بغض وعداوة، قال تعالى (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) [سورة المائدة:8] وفي هذه الآية تحذير من ظلم الآخرين والجور عليهمبسبب البغض أو العداوة الصادرة منهم تجاه المسلمين، ذلك أن البغض أو العداوة ليساسببا للحرمان من العدل والإنصاف، وهي دعوة صريحة إلى إرساء العدل (القسط) في المجتمع الإنساني حتى مع من نكره،"فلا عذر لمؤمن في تَرْك العدل وعدم إيثاره على الجور والمحاباة، بل عليه جعله فوق الأهواء وحظوظ النَّفْس، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما، فلا يَتوهَّمَنَّ مُتوهم أنه يجوز تَرْك العدل في الشهادة للكافر، أو الحكم له بحقه على المؤمن"[27].

المستوى الثاني ـ التجرّد عن كل الاعتبارات في التعامل مع الآخرين بالعدل: وقد حذّر القرآن الكريم المسلمين ـ بعد أن أمرهم بوجوب العدل ـ من تغليب العاطفة على العدل، أو المحاباة في التعامل مع الناس، قال تعالى (**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا**

([26]) ـ القاسمي: محاسن التأويل، ط1: 1957، ج16، ص 5768.

([27]) ـ تفسير المنار: 274/6.

فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)[سورة النساء:135]

وهذه الآية تخاطب المؤمنين وتحثّهم على المبالغة في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل، "فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه...وقوله(**فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**) أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم ، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، كما قال تعالى(**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**)[28][سورة المائدة:8]

وفي سبيل ترسيخ العدل والإنصاف مع الآخرين جاء العتاب الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأن عاطفته اتجهت نحو أحد المسلمين من الأنصار وكاد يحكم لصالحه ضد خصم له من اليهود كان بريئا مما اتّهم به، وذلك أن طعمةبن أبيرق سرق درعا لأحد المسلمين،فلما خشي أن ينكشف أمره رمى به في بيت يهودي،وحاول إلصاق فعلته باليهودي البريء، فجاء بعض قومه إلى النبي(صلى الله عليه وسلم) محاولين استغلال عاطفته نحوهم كمسلمين من أجل تبرئة ساحة صاحبهم وتغليظ قلب الرسول على اليهودي، وكاد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقتنع ببراءة الأنصاري قبل أن يتحقق من الأمر، ومع ذلك لحقه العتاب الإلهي[29] (**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا**)[سورة النساء:105 ـ107]

وهذا العتاب الإلهي ـالذي دلّ عليه سياق الآية ـ يعبّر عن مدى حساسية الإسلام من الجور والمحاباة، ومدى ارسائه وترسيخه لقيمة العدل مع الجميع، وإن كانوا من أشد الناس عداوة للذين آمنوا.

وقد أكدّت "وثيقة المدينة" أو "صحيفة المدينة" أو "دستور المدينة"[30]على هذا التوجه الإسلامي الجديد والموقف القرآني الفريد في التعامل بعدل وانصاف مع الآخرين، وهذا ما نستشفّه من خلال مظهرين:

([28]) ـ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: نخبة من العلماء، مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، ط1: 2000، ج4، ص 309.

([29]) ـ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط1: 2006، ج7، ص 113 ـ 123.

([30]) ـ لقد تعرض أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة المعارف والحكم. المدينة المنورة، ط1: 1992، ج1، ص 275) لدراسة طرق ورود الوثيقة وتوصل إلى أنها ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة. ينظر النص الكامل للصحيفة: ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار الكتب العلمية. بيروت، مج1، ص 446. 448. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، دار النفائس. بيروت، ط5: 1985، ص 41. 47.

المظهر الأول ـ عدم حصر الانتماء للأمة في المسلمين وحدهم: فقد اعترف هذا الدستور بشرعية الآخرين (اليهود والمشركون) وبوجودهم، وبأنهم جزء أصيل في الجماعة الجديدة (الأمة)حينما اعتبرهم يشكّلون مع المسلمين "أمة واحدة"، جاء في المادة (25) من هذا الدستور ما نصّه "وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين"[31].

ولم يقف الأمر عند يهود بني عوف لوحدهم، وإنما امتدّ لباقي قبائل اليهود، وهذا ما نراه في المواد (من 26 إلى 35).

فالتحام الآخر (اليهودي والوثني) في الأمة الواحدة والرعية المتحدة يدلّ على مدى عدل الإسلام وانصافه معهم.

المظهر الثاني ـ تحطيم التفرقة العنصرية بين جميع مكونات المجتمع في الحقوق والواجبات: حيث كان للآخرين (اليهود والمشركون) ما للمسلمين من حقوق، وعليهم من الواجبات ما على المسلمين، "فلا تمييز لأي فئة كانت أمام مغانم الحياة العامة ومغرمها في المدينة، لأن المبدأ الإسلامي العادل هو الغرم بالغنم"[32]،وقاعدة القواعد التي اشتهرت في التشريع الإسلامي وفي كتب الفقه وعلى ألسنة الفقهاء في هذا الأمر "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".فالكل سواسية أمام القانون بصرف النظر عن عرقهم أو لونهم أو دينهم أو مكانتهم الاجتماعية...

وقد جسّد دستور المدينة في مواده (24 إلى 35، و37، 38، 39، 41، 43، 44، 45،45ب، 47) التحام الآخر بالمسلم الذي أصبح مكوّنا رئيسيا في هذه الأمة، التي قامت على أساس من العدل والإنصاف الذي يحكم علاقة الناس بعضهم ببعض.

وبذلك أصبح الآخر جزءا من الذات له كامل حقوق المواطنة، وهو ما جعل التصنيفات التي تجعل من الآخرين غرباء أو أجانب أو رعايا أو مواطنين من الدرجة الثانية لا معنى لها.

وهكذا جاء القرآن الكريم ليختطّ أمورا جديدة، وجاءت الصحيفة مؤكدة على معنى العدل والإنصاف، شاجبة للطبقية، حيث تنصّ المادة (15) على "أنذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس".

المبحث الخامس ـ الإقرار بالحرية:وهو من الأسس والثوابت التي تبيّن وتوضّح طاقة الإسلام الاستيعابية للآخر، وقد تحدثنا في المبحث السابق وقلنا أن الإسلام كان بمثابة ثورة إصلاحية على العادات السائدة آنذاك، هذه العادات القائمة على أساس رابطة الدم وما تعنيه من إلغاء وتهميش واقصاء للآخر، ومصادرة لأبسط حقوقه، فضلا عن حق الحرية الذي يعدّ أقدس الحقوق والمدخل لجميع الحقوق الأخرى. ومع مجيء الإسلام تغيّرت الأوضاع حين رفع شعار "الاحتواء" بدل "الإلغاء"، و"الإقرار" بدل "الاحتكار"، و"الحرية" بدل "الحتمية".

([31]) ـ ينظر: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس ـ بيروت، ط6: 1987، ص 61.

([32]) ـ أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، العدد (110)، ديسمبر 2005 ـ يناير 2006، ص 72.

وينطلق التصور الإسلامي في نظرته لحرية الإنسان ـ عموما ـ من إنسانية الإنسان، ذلك أن هذا المخلوق المكرّم لا يكون كذلك إلا إذا أعطيت له الحرية الكاملة في استعمال عقله وتحكيمه فيما يراه خطئا أو صوابا، فليس لغيره ـ مهما كان ـ أن يتدخل في ذلك إلا في إطار النصح والتوجيه والإرشاد، وعليه فإن قيمة الإنسان تهتز إذا تم الحجر على عقله وفكره وتم اختيار مصيره، فليس له أن يفكر أو يقرر أو يعتقد، بل عليه أن يسمع ويطيع، وهذا هو المنطق الفرعوني الذي حكاه القرآن الكريم (**قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**)[سورة غافر: 29]

والقرآن الكريم يرفض هذا المنطق، بل جاء لمحاربته واستبداله بالحرية التي يعشقها كل إنسان لأنها تحقق إنسانيته[33].

إن الحرية منحة إلهية أو جدها الله مع خلق الإنسان، وجعل قيمتها تعدل قيمة الحياة حين قال تعالى (**ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة**) [سورة النساء:92]

فالقرآن يقرر أن تحرير الرقبة من العبودية هو بمثابة إحيائها من موات، لأنها توازي نفسا مؤمنة حرة ماتت بطريق الخطأ، فكأن القرآن يريد أن يقول: إن العبودية موت، والحرية حياة، يقول محمد الطاهر بن عاشورفي تفسيره لهذه الآية:" وقد جعل هذا التحرير بدلا من تعطيل حق الله تعالى في ذات القتيل، فإن القتيل عبد من عباد الله، ويرجى من نسله من يقوم بعبادة الله وطاعة دينه، فلم يخل القاتل من أن يكون فوّت بقتله هذا الوصف، وقد نبّهت الشريعة بهذا على أن الحرية حياة، وأن العبودية موت، فمن تسبّب في موت نفس حية كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة وهي المستعبدة"[34].

فإذا كانت هذه هي قيمة الحرية (مطلقا) في الإسلام، فإن للحرية الدينية أو حرية المعتقد مكانة كبيرة في النسق الإسلامي، ولا أدلّ على احترام الإسلام لأديان ومعتقدات وآراء الآخرين من ورودها في ست وثلاثين سورة وخمس وعشرين ومائة آية[35] ، وفي هذا دلالة على الاهتمام المركزي الذي تحظى به حرية المعتقد في الرؤية الإسلامية.

وقد جاءت الآيات القرآنية للتأصيل لهذا المبدأ، ولعلّ أبرز هذه الآيات قوله تعالى (**لا إكراه في الدين**) [سورة البقرة:256]

---

[33]) ـ فالإسلام جاء ليرفع القيود والأغلال التي أثقلت كاهل البشرية، قال تعالى(**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**) [سورة الأعراف:157]

ومن هنا كانت الحرية من كليات الشريعة التي ثبت اعتبارها بما يزيد عن مائتي نص. ينظر: طه جابر العلواني: لا إكراه في الدين. إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة، ط2: 2006ص 116.

[34]) ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير:159/5.

[35]) ـ أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، مرجع سابق، ص 83.

وقد نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار ـ أو في رجل منهم ـ كان لهم أولاد قد هودوهم أو نصروهم، فلما جاء الإسلام أرادوا إكراههم عليه فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم من يختار الدخول في الإسلام[36].

وهذه الآية تعد قاعدة كبرى من قواعد الإسلام وركنا عظيما من أركان سياسته[37]، وهي صريحة في دلالتها على أن كل فرد حر في اختيار عقيدته بعيدا عن الإكراه والضغط والتضييق، ذلك أن الإكراه يثمر نفاقا ولا يثمر إيمانا، إذ الإيمان تصديق وإذعان قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل[38]. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية :" لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام فإنه بيّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا.."[39].

وهكذا نرى أن حرية المعتقد في الإسلام أمر مكفول وحق مصون للآخرين، وهذا ليس عطفا أو إحسانا من المسلمين تجاه الآخرين بل هو جزء من عقيدة المسلم التي علمته أن الاختلاف سنة كونية وأن الإجبار يتنافى مع هذه السنة الكونية، وما أبلغ كلام يوسف القرضاوي في تعليقه على آية "النهي عن الإكراه":"فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبناءهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم في دينهم وقوميتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات التعب والاضطهاد للمخالفين في المذهب فضلا عن الدين، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيّرت رعاياها حينا بين التنصر والقتل، فلما تبنّت المذهب "الملكاني"[40] أقامت المذابح لكل من لا يدين به من المسيحيين، ورغم ذلك رفض القرآن الإكراه...فالإيمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تلفظ باللسان أو طقوس تؤدى بالأبدان بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه"[41].

وإذا تجاوزنا الآيات القرآنية التي أعلت من قيمة حرية المعتقد، وانتقلنا إلى البيان النبوي للوحي الإلهي فإن أول ما سنجده في الإقرار بحرية معتقد الآخرين وثيقة المدينة التي اعتبرت الحرية الدينية من الضرورات الواجبة لهذا الإنسان،

---

[36]) ـ تفسير الطبري: 546/4. تفسير القرطبي: 282/4.

[37]) ـ محمد عمارة: الإسلام والحرية الدينية، مكتبة الشروق ـ القاهرة، ط1: 2004 ، ص 24.

[38]) ـ تفسير المنار: 37/3.

[39]) ـ تفسير ابن كثير: 444/2.

[40]) ـ طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، وتسمّى كنيستهم كنيسة الروم، سمّوا بذلك لأنهم أيّدوا القرار الذي أتّخذه مجمع "خلقدونية" عام 451م ضد بدعة "أوطيخاالمونوفيزية" القائلة بطبيعة واحدة للمسيح، فلقّبهم مخالفوهم ازدراء لهم بالملكيين لوقوفهم في صفّ "مرقيانوس" الذي كان يعاضد المجمع. ينظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، دار الجيل ـ بيروت، ص 110.

[41]) ـ يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط3، 1992ص 18 ـ 19.

فهي ليست مجرّد حق يطالب به الإنسان فحسب، وإنما هي واجب من واجبات المجتمع على الفرد، فالمجتمع مطالب برعايته وحمايته، ولا يجوز لأي كان إنكاره أو إلغاؤه، كما أن هذا الحق ليس مجرّد فضيلة إنسانية يمنحه حاكم ويمنعه آخر، وإنما هو دين مقدّس يكتسي قداسته من نصوص الوحي، وهذا ما نلمسه في المادة (25) من الوثيقة التي جاء فيها: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" طبقا لقوله تعالى (**لكم دينكم ولي دين**) [سورة الكافرون:6]

وبكل جلاء ووضوح يصرح "دستور" الدولة الجديدة في بنوده من رقم (25) إلى رقم (35) أن لكل طرف من الأطراف المتعاقدة دينه ومعتقده، يمارسه بكل حرية في ظل النظام الجديد لهذه الدولة الفتية، لأنها ليست دولة دينية أو عرقية أو دولة قبيلة، وإنما هي "دولة فكرة تفتح أبوابها لمختلف الأديان ما برئت من نزعات العدوان"[42].

إن هذا التصريح بمبدأ حرية المعتقد هو بمثابة ضمانات وتطمينات للآخر تبدّد مخاوفه، وأنه مكوّن رئيسي فيها، وأن الاعتراف به ليس مجرّد اعتراف نظري(شكلي) وإنما هو اعتراف عملي تجسّد من خلال الإقرار بحقّه في الحرية الدينية.

لقد جاءت وثيقة المدينة للتأسيس لدولة قائمة على أساس إنساني مفتوح (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**) [سورة الكهف:29]، فهي لا تصادر الأفكار والثقافات والمعتقدات الأخرى، وإنما تدفع العدوان من جانب تلك الأفكار والعقائد فحسب (**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) [سورة الممتحنة:9].

فإن توقف العدوان فقد تقدست حرمات الإنسان[43] (**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) [سورة الممتحنة:8]

وقد استقر هذا المبدأ الشرعي العظيم (حرية الاعتقاد) كواحد من ثوابت الفكر الإسلامي وألقى بظلاله على الكثير من الاجتهادات الفقهية في مختلف نواحي المعاملات، ومن القضايا الطريفة ـ والهامّة ـ في هذا الصدد ذلك الجدل الفقهي الذي أثير حول حق الزوج المسلم في مناقشة زوجته غير المسلمة في مسألة إسلامها، وهل يُعدّ ذلك ـ في ظل عقد الزواج القائم بينهما ـ من قبيل الإكراه على اعتناق الإسلام أم لا؟ وقد ذهب الشافعي ألا يفاتح الرجل زوجته في هذا الأمر، ولا يعرض عليها الإسلام لأن فيه تعرضا لهم، وقد "ضمنّا بعقد الذمّة ألا نتعرض لهم"[44]، بينما يرى الأحناف أن للزوج أن يعرض على زوجته الإسلام لمصلحة من غير إكراه[45].

---

[42]) ـ أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة، مرجع سابق، ص 82.

[43]) ـ أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة، مرجع سابق، ص 81.

[44]) ـ عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، 1982، ص 629.

[45]) ـ الزيلعي: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، دار الكتاب العربي ـ القاهرة، ط2، ص 174.

كما لم يجز الفقهاء استخدام التقصير أو الشح في النفقة وسيلة للضغط على غير المسلمين رجاء إسلامهم، وقد نزل في ذلك قوله تعالى (**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون)** [سورة البقرة: 272]

وهذه الآية وردت في سياق ذكر الصدقات ونحوها من أنواع النفقات والصلات، وقد روى سعيد بن جبير مرسلافي سبب نزول هذه الآية "أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تصدّقوا إلا على أهل دينكم**)[46]، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام[47]، كما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ناسا من الأنصار لهم قرابات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك، وقيل: أن أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أرادت أن تصل جدها أبا قحافة ثم امتنعت من ذلك لكونه مشركا فنزلت الآية"[48].

فدلّت هذه الأسباب على عدم استخدام التقصير في الصلة أو النفقة وسيلة للضغط على غير المسلمين لحملهم على الإسلام.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على دقّة وحساسية فقهاء الإسلام في إبعاد شبهة الإكراه في الدين.

وصفوة القول أن إقرار الإسلام للحرية الدينية يعكس مدى احترام الإسلام للآخر واحتوائه له، واعترافه بشرعيته، هذه الشرعية هي التي دفعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما وجد بين الغنائم عدة صحف من التوراة بعد غزوة خيبر أمر بتسليمها إلى اليهود، ولم يصنع صلى الله عليه وسلم ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك نسخا من التوراة[49].

الخاتمة:

ومن خلال هذه الدراسة التي تحدثنا فيها عن موقع ومكانة الآخر عموما وأهل الكتاب على وجه الخصوص في المنظومة العقدية والتشريعية الإسلامية، نرى أن الإسلام في اعترافه بالآخر من أهل الكتاب انطلق من جملة من الأسس والركائز توضّح رؤيته للآخر، هذه الأسس التي لو تأملنا فيها لوجدنا أنها ترسي وتؤسس قواعد متينة للمشترك الإنساني، بل تصلح لأن تكون أرضية تفاهم تنطلق منها البشرية لمدّ جسور التعارف والتعاون والتكامل فيما بينها،

---

[46]) ـ أخرجه ابن أبي شيبة : المصنف، تحقيق: محمد عوّامة، دار قرطبة ـ بيروت، 2006.، ج6، ص412، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة: 2766).

[47]) ـ يرى الطبري في تفسيره (19/5) أن مقصد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنع الصدقة عن المشركين إنما كان لغرض الدخول في الإسلام فنزلت الآية (**ليس عليك هداهم**)

[48]) ـ تفسير القرطبي: 367/4.

[49]) ـ المقريزي: امتاع الأسماع بما للنبي ـ صلى الله عليه وسلم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد النفيسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت،.ص 377.

ذلك أنها تقصي أطروحات التمييز العنصري القائمة على التفوق العرقي والاصطفاء الإلهي (عقيدة شعب الله المختار) التي يؤمن بها اليهود.

وبذلك كان للإسلام فضل السبق في التأسيس لميثاق حقوق الإنسان (وهو أول ميثاق عالمي يعنى بحقوق الآخر) هذا الميثاق الذي تجاوز حدود الاعتراف النظري بالآخر إلى مدّ جسور التواصل معه ـ كما هو الشأن مع أهل الكتاب ـ سياسيا واقتصاديا واجتماعياوثقافياوجعله في الشريعة الإسلامية جزءا من الذات الدينية الواحدة، وما هذه الأحكام المتعلقة بالآخر التي تزخر بها المنظومة التشريعية إلا خير شاهد على ذلك.

كما بيّنت هذه الأسس بشكل واضح جلّي مدى احترام الإسلام للآخر واحتوائه له، وهو ما ينسف كل الشبهات التي تروج هنا وهناك من أن الإسلام قائم على إلغاء غير المسلمين واستبعادهم ورفض التعايش والتواصل معهم.